

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْعِفَةُ مَظَاهِرُهَا وَآثَارُهَا

الحمد لله رب العالمين، حث عباده على العفاف والنقاء، ونهام عن السوء والفحشاء، سبحانه جعل العفة خلق الأنبياء والأولياء، ووعد بها دوام الخير والنعماء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وعد المتعفف أن يكون في كنف الله وحماته، وحفظه ورعايته، وأشهد أن سيدنا ونبيانا محمدًا عبد الله ورسوله، المبعوث رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وعلى الله وأصحابه، وعلى كل من اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ:

ما أجمل أن نتمسك بـهداية الدين، وما أروع أن نتحلى بـأخلاق سيد المسلمين، ونردد على سمع العالمين: «قُلْ إِنِّي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (١)، لم يطع الناس أفضل من الحال الكفاف، وما رداء خير من رداء الحشمة والعفاف، فالعفاف سبباً الأنبياء، وحلية العلماء، وتاج الصالحين الأولياء، به تصلح معاش العباد، وتচان حقوقهم، وتبني حضارتهم، ومن كانت العفة لباسه فلن ينفع بما آتاه الله، ولم يسأل ما ليس له، فعاش كريماً، ومات معافياً سليماً، لا فلتختذل العفة - أيها المسلمين - خلقاً ملازماً، وصاحبًا جليلًا.

إِيَّاهَا الْمُسْلِمُونَ:

لقد وردت في الكتاب العزيز آيات كريمة تدعو المسلم إلى خلق العفاف، اثنان من هذه الآيات تتحدثان عن الجانب المالي، حتى يكون المسلم عفواً عن أموال الآخرين وما ليس له به حق، وتتحدث آية أخرى عن العفاف في الجانب الجنسي.

وَحُبُّ الْمَالِ وَالشَّهْوَاتِ غَرِيزَتِنِ تَحَدَّثَ عَنْهُمَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، ﴿رَبِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ أَشَهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنْطِيرِ الْمُقْنَطِرَةِ مِنْ الْذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرَثِ ذَلِكَ مَتَّكِعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدُهُ حُسْنُ الْمَيَابِ﴾^(١)، وَالإِسْلَامُ دِينُ يُرَاعِي الغَرَائِزَ الْفِطْرِيَّةَ، وَالخَصَائِصَ الْجِبْلِيَّةَ، وَجَعَلَ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا يُهَذِّبُ تِلْكَ الْغَرَائِزَ، فَمَنِ الْعَفَافُ مَا هُوَ تَهْذِيبٌ لِغَرِيزَةِ حُبِّ الْمَالِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَانِ الْقَائِمِينَ عَلَى أَمْوَالِ الْيَتَامَى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلَيَسْتَعْفِفَ﴾ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلَيَأْكُلُ بِالْمَعْرُوفِ^(٢)، وَمَنِ الْعَفَافُ الْبُعْدُ عَنِ الْمَسَأَةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ، وَتَرَكُ التَّسْوُلِ عَلَى الطُّرُقَاتِ، وَعِنْدَ أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ، فَهَذَا مَسْلَكٌ مَذْمُومٌ، وَإِرَاقةُ لِمَاءِ الْوَجْهِ، وَقَدْ مَدَحَ الْقُرْآنُ قَوْمًا بِهِمْ مِنَ الْحَاجَةِ وَضَيقِ ذَاتِ الْيَدِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، وَمَعَ ذَلِكَ ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ﴾^(٣)، أَمَّا فِي الْجَانِبِ الْجِنْسِيِّ، فَيَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَوْضُوعَ الرِّوَاجِ وَيَحْثُثُ عَلَيْهِ، أَمَّا مَنْ لَمْ يَجِدْ سَبِيلًا إِلَيْهِ لِقْلَةُ ذَاتِ الْيَدِ، وَقُصُورٌ عَنِ الْوَفَاءِ بِمُتَطَلَّبَاتِهِ، وَالْوَفَاءِ بِالْتَّرَامَاتِهِ؛ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ غَيْرَ التَّسَامِيِّ عَنِ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ، وَإِحْالَةِ الْذَّهْنِ وَالْتَّفْكِيرِ وَصَرْفُهُ إِلَى شُؤُونِ مُفِيدَةٍ، وَالاحْتِمَاءُ بِتَقَافَةِ الْعَفَافِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيَسْتَعْفِفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٤). أَيُّهَا النَّاسُ:

إِنَّ مَسْلَكَ الْعِفَةِ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يَكُونُ مِنْهُ إِلَّا الصَّلَاحُ وَالتَّيسِيرُ، وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ نَمَادِيجَ مِنْ أَهْلِ التَّقْىٰ وَالْعَفَافِ، قَادَتْهُمْ عِفَةُ النَّفْسِ إِلَى تَبُوءِ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْفَضْلِ، وَأَنْزَلَهُمُ اللَّهُ مَنَازِلَ الصَّدِيقَيْنَ وَالْأَبْرَارِ، فَهَا هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حِينَ خَرَجَ إِلَى مَدِينَةِ مَكَّةَ حَتَّى يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

(١) سورة آل عمران / ١٤ .

(٢) سورة النساء / ٦ .

(٣) سورة البقرة / ٢٧٣ .

(٤) سورة النور / ٣٣ .

قَوْمِهِ لَهُ؛ جَاءَتْنَاهُ الْبُشْرَى، وَنَزَّلَ عَلَيْهِ بَرْدُ الْفَرَجِ بَعْدَ الشَّدَّةِ، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدِينَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ أُمَّرَاتِينَ تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطَبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الْرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَيْرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، فَجَاءَتِهِ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أُسْتِحْيَاءٍ قَالَتِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخْفَنِي بَنْوَتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، فَأَنْجَاهُ اللَّهُ بِعِفْفَتِهِ، وَوَفَّقَهُ إِلَى مَرْضَاتِهِ بِحُسْنِ نِيَّتِهِ. وَهَا هُوَ يُوسُفُ الصَّدِيقُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ابْنُ الْمُؤْمِنِ بِمُؤْمَنَةٍ وَمِحْنَةٍ مِنْ قِبَلِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، غَيْرَ أَنَّهُ اسْتَعْفَ وَتَذَكَّرَ نِعْمَةَ رَبِّهِ، فَاتَّاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَهُءَاتَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ بَخْرِي الْمُحْسِنِينَ، وَرَوَدَتْهُ الْأَتْيَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ، رَبِّيْ أَحَسَنَ مَثَوَّاً إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَعَى بُرْهَنَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢). آيَهَا الْمُؤْمِنُونَ:

جَاءَ فِي السُّنْنَةِ النَّبُوَيَّةِ الْكَثِيرُ مِنَ الشَّوَّاهِدِ عَلَى خُلُقِ الْعَفَافِ، وَفَضْلُ هَذِهِ الْخَصَالَةِ مِنْ خَصَالِ الْإِسْلَامِ، فَفِي حَدِيثِ السَّبَعَةِ الَّذِينَ يُظْلَمُهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: ((وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ))، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهُوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾^(٣)، وَالْعَفَافُ سَبَبُ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ وَتَجَاوِزِ الْأَخْطَارِ، كَمَا وَرَدَ فِي خَبْرِ الْمُلَائِكَةِ الَّذِينَ سَدَّتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ بَابَ الْغَارِ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدُهُمْ مِنْ عَمَلٍ أَرْجَى لَهُ عِنْدَ اللَّهِ يَسْتَشْفِعُ بِهِ، مِنْ إِعْفَافِ نَفْسِهِ وَخَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، فَلَمَّا قَالَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْأَةُ: أَتَقُولُ اللَّهُ عَظِيمٌ

(١) سورة القصص / ٢٣-٢٥.

(٢) سورة يوسف / ٢٢-٢٤ .

(٣) سورة النازعات / ٤٠-٤١ .

عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ، وَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَخْلَى سَبِيلَاهَا؛ إِعْظَامًا لجَلَالِ اللهِ، وَاسْتِشَارًا لرِقَابِتِهِ، فَهَذِهِ النُّصُوصُ تَحْمِلُ عَلَى سُمُّ النَّفْسِ، وَنُبْلِ الطَّبَاعِ، وَالْعَالِي عَنِ الشَّهْوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، قَالَ تَعَالَى：«وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، جَنَّانٌ»^(۱).

فَاتَّقُوا اللهَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ -، وَالزَّمُوْرُ خُلُقُ الْعِفَةِ حِيثُ كُنْتُمْ، وَاقْرُنُوهَا فِي كُلِّ أَقْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ، وَتَذَكَّرُوا قِصَصَ الْمُسْتَعْفِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِدَنَّهُمْ أَقْتَدَهُ»^(۲).

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرُ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبُ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُ الْكَرِيمُ.

*** * *** ***

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا لَا أَمْدَ لَانْقِطَاعِهِ، وَلَا حَدًّا فِي نُطْقِهِ وَسَمَاعِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، خَتَّمَ بِالْعَفَافِ خُلُقَ أَتْبَاعِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَعَلَى أَهْلِهِ وَصَاحْبِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَنِ اهْتَدَى بِهِدْيَهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَمَّا أَرْسَلَ الرَّسُولَ مُحَمَّدَ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} كِتَابَهُ إِلَى هَرقلَ مَلِكِ الرُّومِ، لِيَدْعُوهُ إِلَى الإِسْلَامِ؛ سَأَلَ هَرقلُ مَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ عَنْ أَحْوَالِ هَذَا النَّبِيِّ، وَأَمْوَرٍ أَرَادَ مَعْرِفَتَهَا عَنْ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، فَكَانَ مِمَّا سَأَلَ: فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ - يَعْنِي: النَّبِيُّ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} -؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَقُولُ: ((اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آباؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ)), وَبِهِذَا تَتَحدَّدُ مَكَانَةُ الْعَفَافِ فِي هَذَا الدِّينِ، وَتَتَكَدُّ الْمُطَالَبَةُ بِهِ فِي سُلُوكِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا عَجَبٌ إِذَا أَنْ يَكُونَ مِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} قَوْلُهُ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالْتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغَنَى)). إِنَّ الْعَفَافَ لَيْسَ شُعُورًا قَلْبِيًّا فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ نِظامٌ خُلُقِيٌّ مُتَكَامِلٌ، يَعْتَمِدُ

(۱) سورة الرحمن / ۴۶ .

(۲) سورة الأنعام / ۹۰ .

عَلَيْهِ سُلُوكُ الْإِنْسَانِ وَنِظَامُهُ، وَتَتَشَعَّبُ مِنْهُ مَكَارِمُهُ وَصِفَاتُهُ، وَتَتَطَلَّقُ مِنْهُ رُؤْبَتُهُ لِلْحَيَاةِ مِنْ حَوْلِهِ، فَيُبَصِّرُ الدُّنْيَا بِعَيْنِ الْعِفَةِ، وَيَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ عَلَى ثَوَابِهَا. الْعِفَةُ خُلُقٌ يُلَازِمُ الْأَبَ في بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ بَيْنَ أَهْلِهَا، وَالْمَسْؤُلُ فِي مَقْرَرِ عَمَلِهِ، وَالْمُسَافِرُ فِي غُرْبَتِهِ، وَطَالِبُ الْعِلْمِ فِي مَدْرَسَتِهِ، وَالْجَمِيعُ حَيْثُ كَانُوا، وَلَا يَتَرُكُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فَارِقَةُ الْخَيْرِ، فَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ خُسْرًا.

فَانْتَهُوا اللَّهُ تَعَالَى - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ -، وَتَزَوَّدُوا مِنَ الْعِفَةِ فِي سُلُوكِكُمْ؛ تَتَقَرَّبُوا بِذَلِكَ إِلَى مَوْلَاكُمْ، حَتَّى يُحِبَّكُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَيُكْتَبَ لَكُمُ القَبْوُلُ فِي الْأَرْضِ، مَعَ حُسْنِ الذِّكْرِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ وَالْعِرْضِ.

هَذَا وَصَلُوْا وَسَلَمُوا عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَقَائِدِ الْغُرُّ الْمُحَجَّلِينَ، فَقَدْ أَمْرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ عَزَّ قَائِلاً عَلَيْمًا: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَكِيَّتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى الَّتِي يَتَأْمِنُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلَوْا عَلَيْهِ وَسَلَمُوا تَسْلِيمًا» (١).

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسِلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وَسَلَّمْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمَيْنِ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضِ اللَّهُمَّ عَنْ خُلْفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمِيعًا هَذَا جَمِيعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مَعْصُومًا، وَلَا تَدْعِ فِينَا وَلَا مَعَنَا شَقِيقًا وَلَا مَحْرُومًا.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقْوَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كُلَّا مِنَ لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا خَائِشًا مُنْيِبًا، وَعَمَالًا



صالحاً زاكياً، وعلماً نافعاً رافعاً، وآيماناً راسخاً ثابتاً، ويقيناً صادقاً خالصاً، ورزقاً حلالاً طيباً واسعاً، يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، ووحد الله صنوفهم، وأجمع كلمتهم على الحق، وأكسر شوكة الظالمين، واكتب السلام والأمن لعيادي أجمعين.

اللهم ربنا احفظ أوطاننا وأعز سلطاناً وأيده بالحق وأيده به الحق يا رب العالمين.

اللهم ربنا اسقنا من فيضك المدار، واجعلنا من الذاكرين لك في الليل والنهار، المستغفرين لك بالعشري والأسحار.

اللهم أنزل علينا من بركات السماء وأخرج لنا من خيرات الأرض، وبارك لنا في ثمارنا وزروعنا وكل أرزاقنا يا ذا الجلال والإكرام.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ربنا لا تر غ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنى أنت الوهاب.

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين.

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إنى سميع قريب مجيب الدعاء.

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَاتِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.